المحاضرة07: مفهوم الرواية العربية ونشأتها

تمهيد:

تأسست نظرية الرواية في أوروبا إثر التراكمات المعرفية والقراءات العلمية المختلفة للنص الروائي وارتبطت هذه النظرية بالعلوم الاجتماعية أكثر عندما اعتبر الأدب نتاجا اجتماعيا، واعتبرت الرواية جنس أدبي واقعي وألصق الأنواع الأدبية بالبنيات الاجتماعية، كما ظهر نوع من التنافس المنهجي بين كل من النقد الأدبي والتحليل النفسي والاجتماعي.

وقد يكون من الصعب التحدث عن نظرية الرواية العربية، إذ الأعمال النظرية قليلة ومعظمها يؤرخ لنشأة الرواية ويبحث في أصولها، فيذهب البعض إلى أن الرواية العربية هي الابن الشرعي للرواية الأوروبية[i] على الرغم من أنه عرف في الأدب العربي منذ القديم، تحت بعض الأشكال السردية دون التسمي باسم "الرواية"، لأن هذا المصطلح بمعنييه الشكلي والجمالي هو من مصطلحات القرن العشرين بالقياس إلى الأدب العربي.

أولا - مفهوم الرواية.

تعد الرواية في الأدب العربي الحديث والمعاصر الفن الأدبي الأقدر على التعبير عن هموم الإنسان المعاصر ومعالجة القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية المركبة والمعقدة، وهي «انطباع شخصي مباشر عن الحياة... أو هي قصة خيالية نثرية طويلة»[ii]، بمعنى أنها شكل أدبي سردي يحكيه راو، وهي بذلك تختلف عن المسرحية التي تحكي قصتها من خلال أفعال وأقوال الشخصيات.

وتعني الرواية أيضا «قص حدث أو أحداث أو أخبار سواء كان ذلك من صميم الحقيقة أم من ابتكار الخيال على أن يراعي الإثارة الفنية عند المتلقي»[iii]، وهي العملية التي يقدم بها الراوي الحكاية، ولا يقدمها حسب الترتيب الذي وردت به في الواقع، وإنما يعيد الراوي (السارد) ترتيب الأحداث بطريقة سردية تتوخى الجمالية والإثارة الفنية.

فالرواية فن حديث له صياغة خاصة وإطار مرسوم ونسيج لغوي محدد ووظيفة متباينة، تصور تجربة إنسانية وتخلو من الكائنات الغريبة كالسحرة والعفاريت... الخ، ولم يكن للرواية أن تظهر في أدبنا الحديث والمعاصر لولا اختلال قيم المجتمع واهتزازها، وهدفها تجسيد رؤية الكاتب الفنية الخاصة أو فلسفته الجديدة وموقفه من الإنسان ومن عالم الواقع والحياة المعيشة.

وهناك من يعرف الرواية على أنها «شكل من أشكال القصة، يتميز بالمرونة والانسيابية، وهذا يعني أن الشكل الروائي متطور ومتغير باستمرار، فهو دائم التمرد على ذاته أولا، وعلى القواعد والقوانين ثانيا»[iv] وهذا يقتضي قراءة الروايات قبل تعريف الرواية، لأن التعريف يستخلص من النصوص الروائية وليس من أفكار أو نظريات جاهزة سلفا.

وكأن الرواية في عصرنا الحاضر هي النثر الفني بمعناه العالي؛ فلغة الرواية المنثورة يجب أن تكون اللغة السائرة بين الناس؛ لغة التوصيل التي إن لم تك لغة الناس جميعا؛ فلا أقل من أن تكون لغة الطبقة المستنيرة منهم، فكأنها

لغة نصفها شعري جميل، ونصفها الآخر شعبي بسيط؛ كأنها اللغة الأكثر شيوعا، والأعم استعمالا، بين المثقفين وأوساط المثقفين معا.

ولم يعترف المفكرون والفلاسفة القدماء بجنس الرواية لعدم وضوحه، وبروز ملامحه على تلك العصور لموغلة في القدم؛ إذ نلفي أرسطو لا يختص هذا الجنس بشيء في كتاباته ذات الصلة بالتنظير للأدب؛ ولكنه جنح بها نحو الشعر والخطابة والمناجاة والملهاة خصوصا. ولعل هيجل أن يكون أول من اختص من الفلاسفة الغربيين جنس الرواية بشيء من العناية، فتحدث عنها ضمن نظرياته حول علم الجمال[v].

ولقد شغل مفهوم الرواية وتحديده عددا كبيرا من المبدعين والنقاد في الغرب والشرق حيث يعرفها "تشارلتن" بأنها «ضرب من الخيال النثري له مهمة خاصة به، وهي أن تقص أعمال الرجل العادي في حياته العادية بعد أن تضعها في شبكة من الحوادث كاملة الخطوط متتبعة كل فعل إلى أدق أجزائه وتفصيلاته وسوابقه ولواحقه، موغلة في دخيلة النفس حينا لتبسط مكنوناتها أثناء وقوع الفعل مستعرضة الآثار الخارجية للفعل حينا آخر»[vi]، ونفهم من هذا التعريف أن الرواية يتميز أسلوبها عن الأسلوب الشعري بأنها خيال نثري، وهي ليست نقلا حرفيا للواقع أو انعكاسا لمعطياته.

أما "محمد غنيمي هلال" فيركز في تعريفه للرواية على طبيعتها وموضوعها ووحدتها وغايتها، فهي «كالحياة معقدة متعددة الجوانب، ممتدة حية المعالم، وقصد المؤلف فيها إلى حكاية الفشل أو النجاح أقل من قصده إلى الإنسان في موقف خاص، وما يحيط به من بؤس، وما يتوعده من أخطار، وما يمكن أن يواجه هذه الأخطار به بما لديه من وسائل، وبما منح من إرادة، وينكشف هذا كله عن فكرة كبيرة، وهي ببيان موقف إنساني يكون فيه جهد الإنسان ذا معنى».[vii]

فالرواية تعالج موضوعا متكاملا كما تصور حياة الشخصيات في مراحلها المختلفة وهذا يعبر عن امتداد جنس الرواية ورحابتها، وهي تعبير عن إحساس الكاتب بواقعه، تصور تجربة بشرية لتجسيد رؤية جديدة، وذلك عن طريق نظام محدد للحدث وبنائه والبيئة الزمكانية والشخصيات... الخ، التي تأتلف فيما بينها وتترابط لتشكل بناء عضويا متماسكا ومتميزا عن الأجناس الأدبية الأخرى مثل: الشعر، والمسرحية والقصة...، وغير الأدبية مثل: الرسم، والنحت، والموسيقا... وغيرها.

ثانيا- نشأة الرواية العربية الحديثة.

أرخ البعض لظهور الفن الروائي عند العرب في الربع الثالث من القرن الماضي مع رفاعة الطهطاوي الذي ترجم رواية "مغامرات تليماك" سنة 1867م، بعنوان "وقائع الأفلاك في أخبار تيلماك"، والبعض الآخر أرخ لظهور الفن الروائي في فترة تمتد منذ نهاية القرن الماضي إلى مطلع القرن الجاري، وعد الشكل الروائي العربي الأول مع روايات جورجي زيدان (1861م-1914م) وفرح أنطون (1861م-1922م) تلك الروايات التي صنعت التراث التاريخي والإسلامي كموضوع لها.

وأما الفريق الثالث فيرى أن البداية الرسمية للإبداع العربي كانت مع الطليعة الأولى برواية "زينب" لمحمد حسين هيكل عام 1914، بعد محاولات تمهيدية سبقتها في حين يرى البعض الآخر أن نجيب محفوظ هو الروائي العربي الذي أوصل الشكل الروائي العربي إلى قمة بحثه الاجتماعي،[viii] وبهذا تتعدد وتتعقد الآراء حول التأريخ لبداية الرواية العربية الحديثة، وتتنوع الالتباسات مع هذه المعطيات التاريخية غير المستقرة والاختلاف وارد أيضا في تحديد كيفية نشأة الرواية وظهورها، وهناك أكثر من رأي، لعل أهمها ما يأتي:

1- الرأي الأول: يرى أصحاب هذا الرأي أن الرواية العربية فن حديث وجديد من حيث الموضوع والبناء والهدف، ولا علاقة بينه وبين الفنون القصصية العربية القديمة، فهو نبت جديد في الأدب العربي مأخوذ من الغرب، وذلك لأن «بناء الرواية العربية —من وجهة نظرهم- يشبه بناء الرواية الأوروبية وأساليب الرواية العربية الفنية أساليب غربية أصلا»[ix]، وهناك أمر آخر يستندون إليه، وهو أن معظم رواد الرواية العربية درسوا في الغرب: محمد حسين هيكل، شكيب الجابري، توفيق الحكيم، ذنون أيوب*...الخ.

2- الرأي الثاني: يرى أصحابه أن الرواية العربية تطور طبيعي للقصص التراثي، وأن القصة موجودة عند كل الشعوب والأمم، وذلك من أجل نفي فكرة الأخذ عن الغربيين، ومما لاشك فيه أن أصحاب هذا الرأي ينطلقون من موقف نبيل يتمثل في الحرص على الذات العربية، فما عرفه الغرب عرفه العرب الأوائل وما لدى الغرب من فنون عرفها تراثنا، فهو مليء بالقصص المتنوعة كالحكايات والسير والمقامات... وغيرها.

3- الرأي الثالث: يؤكد أصحابه أن فن الرواية ظهر في أوائل القرن العشرين نتيجة تحولات اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية، تشبه إلى حد بعيد تلك التحولات والتغيرات التي أدت إلى ظهور الرواية العربية، فالرواية العربية وليدة التغير الاجتماعي المحلي الذي بعث قيما جديدة وحساسية فنية وجمالية جديدة، لم تعد الأشكال القصصية التقليدية قادرة على استيعابها فكان لابد من ظهور فن جديد له كيانه وخصائصه المنفردة[x].

والحقيقة أن أصحاب هذا الرأي يجمعون بين الرأيين السابقين، حيث لا يغفلون أثر الغرب في ولادة الرواية العربية، وإن كانوا لا يرونه الأثر الحاسم فيرفضون فكرة الاستيراد، كما لا يغفلون أثر التراث العربي القصصي في بناء الرواية العربية الحديثة، وبالمقابل لا يعتبرونها امتدادا للأشكال القصصية التقليدية، فالرواية فن حديث في موضوعه وبنائه ووظيفته، ولها كيانها المتميز في التعبير عن القيم الجمالية والاجتماعية المستجدة في واقعنا الراهن والمعيش.